رکامیات الصّدیق توما

تجاوز عبر المسار الابداعي الفكاهي لالياس لحود

بقلم: جورج غنيمة

في حضم انبعاث لبنان ـ الفنون والثقافة . ينهض « الياس لحود » ويتقدم شاعرا يشارك في صنع أعراس القيامة اللبنانية ثقافيا . ويترجم مشاركته صدور مجموعته الرابعة : « ركاميات الصديق توما واغاني زهران » . ولايماننا بأن النقد الموضوعي لاي عمل فني يجب أن يتقصى المسار العام لكامل العمل الابداعي عند أي شاعر . ولكي نكتشف مدى وعمق التحول . السائد داخل أجواء « ركاميات » . ينبغي علينا أن نعرض على شاشة النقد والذاكرة بانوراما سريعة وموجزة . نتناول فيها آفاق كل مسيرة « الياس لحود » الشعرية التي يمكن حصرها ـ بعد الطواف بها ـ بين أقواس مراحل ثلاث نعرضها كما يلي :

المرحلة الاولى :

رغم تباعد رقعة المسافة الزمنية بين مجموعتي (على دروب الخريف ١٩٦٢) و (والسد بنيناه ١٩٦٧) . ثمة قاسم مشترك يزاوج بينهما ، عبر وحدة الولاء ، لاسس المنطلقات الجمالية . ولرموز المعاناة واطاراتها الفنية .

ومن هذا المنطلق ، تتآلف . وتتجانس ، وتندغم المجموعتان ، لتصيرا امتدادا موحدا في جسم مرحلة شعرية واحدة. هي مرحلة القصيدة الغنائية التي غنت : الارض النازفة جنوبا ، هموم الذات . والقهر الانساني عموما . ولقد حملت موضوعات هذه المرحلة أربعة ملامح ، حاسمة فنيا ، نوجزها على الشكل التالي :

أولا : اعتماد الغنائية الرومانسية كمبرر فني يسهل عملية الاتصال الشعوري بالاشياء وبالكائنات .

ثانيا : النحول المحدود لعنصر التأسيس البنياني والتقني في عمارة القصيدة التي تألف ألق الابتداع رمزا وصورة دون أن تسعى بقوة نحو اندغام هيكلي ، يجانس ويزاوج ، بين أوتار المعاناة وبحور الموسيقى الخارجية ، وهكذا لا تظهر فيها علامات التجاوز نافرة حسب المفهوم الابداعي المتكامل .

ثالثا : تباطؤ خطوات اللغة ورموزها الافقية في بلوغ عتبات الذهول ، والدهشة والمكاشفة ، وان كانت هذه الخطوات تعمل أحيانا كثيرة كمعادل طبيعي لعالم يتحرك بكل بساطته الريفية بعيدا عن جلبة التصنيع المقصود .

رابعا : السرد الانطباعي السدي يباشر الوصف الداخلي حينا ، أو الخارجي حينا آخر . حيث تلتقط الوان بقيت تمتزج بحذر وحياء . ونقع على مثل هذا في مجمل « على دروب الخريف » وبعض « والسد بنيناه » * .

المرحلة الثانية :

بعد مجموعتي المرحلة السابقة ، وان صمت ، بددت سكونه الطويل تجربة « فكاهيات بلباس الميدان » (١٩٧٤) ** ، حيث تناول الشاعر قضايا ومشاكل العالم السفلي ، وأخرجها بقالب فني ظاهره الادائي : كوميديا، كاريكاتور ، وفكاهة .. وباطنه : مجنزرات، دم ، دمع ، نزوح ، ومآس .

ففي ديوانه « فكاهيات » ، يبدو « الياس » وقد جاء يخترق ملامح المرحلة الاولى ليمحو معالم آثارها السلبية من سجله الادبي . فهو يخطو هنا خطوة شعرية تجعل من الديوان المشار اليه وثيقة فنية منقدمة ـ تصحح نهائيا ـ ملف علاقاته الابداعية بالفن الشعري ، بحيث تستحيل العلاقات المذكورة ، انموذجا ، لمسار شاعر تجاوز بداياته . وراح يرتقي سلم القصيدة انطلاقا من مبدأ : الكتابة بدءا من الصفر كما يقول الناقد الفرنسي رولان بارت . كل هذا يعتبر بمثابة مقدمة أولية ، لتجربة صاغ فيها شاعرها سمات مرحلة شعرية ثانية اشتملت على المواصفات والخصائص الآتية :

أ ـ النمرد على القوالب الجاهزة ، والخروج من سراديب الاتباع والمألوفية الى فضاء الابتكار والتحديث، عبر استيعاب وحسن استخدام الشاعر لتقنيات التيارات الادبية المعاصرة وخلفياتها الجمالية ، اضافة الى استيعابه جميع العناصر التأسيسية التراثية لتجربته الاولى .

ب ـ العبور بنيانيا ، من حلقة التأسيس العفوي

---

* الاولى صادرة عن دار الروائع والثانية عن دار الكتاب اللبناني .

** « دار الآداب » ـ بيروت .

والفطري لعمارة القصيدة . الى حلقة التأسيس الواعي والمسلح بمادتي : الثقافة والرؤية الفكرية .

ج ـ تطور وتنوع الاتجاهات الفنية ، وذلك بفعل امتلاك الشاعر لثقافة شعرية محدثة ـ أوروبية وعربية ـ أسهمت في تشكيل وبلورة تكنيك شعري متطور ينقض ويتجاوز معالم الحقبة المنصرمة .

د ـ التعاطي بحسّ ديموقراطي منفتح ، مع كافة أشكال وهيكليات القصيدة الحديثة ، بما في ذلك قصيدة النثر . وقد أكسب هذا التعاطي الهندسي تجربة « فكاهيات » حضورا أدبيا متميزا على صعيدي : التجربة ـ الشكل ، والتجربة ـ اللغة .

هـ ـ بروز أقنعة تاريخية وأسطورية وأدبية مستقاة من عيون التراثين : العربي والانساني ، مما أسهم في خلق عنصري : الدراما ، والتشويق السردي ، داخليا وخارجيا ، وساعد على التنويع في مناخات التعبير وايقاعات الحنجرة الصوتية .

وهكذا ومن هنا ، أعني انطلاقا من انجازات مرحلة « فكاهيات » ، استطاع « الياس لحود » أن يحوز ـ وبجدارة المبدع ـ على بطاقة الانتماء الى عائلة الشعر العربي الحديث .

والآن ، ماذا عن مرحلة المحطة الثالثة والاخيرة ، أي ماذا تضيف تجربة « ركاميات الصديق توما وأغاني زهران » (١٩٧٨) ، قياسا على كشوفات ثلاثية التجارب الماضية ؟

المرحلة الثالثة :

قديما ، كانت الشعوب البدائية تعتبر الشاعر نبيا مرسلا يتحدر من أحشاء الآلهة ، تزوره ملائكة الوحي ليلا في الحلم وتلقنه القصائد . وهو المشهد الميثولوجي المتوارث الذي لعبته وتلعبه تجربة الحرب اللبنانية على مساحة من خشبة الشعر في لبنان . فلقد باتت هذه الحرب ـ المأساة رمزا لاله الالم اليومي ، الذي اصطفى ويصطفي له من لظى أحشائه رسلا ـ شعراء ، يجسدون طقوسه وشعائره في محراب القصيدة . ومثل هذا فعل « الياس لحود » ـ الشاعر والرسول ، في ديوانه الاخير « ركاميات الصديق توما وأغاني زهران » * . اذ انه استبطن رحلة الحديد والدم والنار في سيرورة الزمن اللبناني الراهن ، ليكشف عن حركة الواقع الداخلية . عبر التمثل الفني والنفاذ الشعوري المرهف ، الى جوهر الاشياء المحطمة والكائنات الدامعة :

« من يلتقط الحبة من عيني
والدمعة من عيني الاخرى يا طير الماء
. . . . . .
دمعي خمر للندماء
ودمعك غصة ما أبقته الغربة
من زهري ورماد الاشياء » .
(قصيدة : عناوين لديوك الماء) .

على أنقاض الدمع ورماد الاشياء ، يدخل الشاعر الى دائره الحلم والتشكيل الطفولي المرسل ، فيحاول أن يرفع الحقيقة الانسانية الممزقة من مستوى المشاهدة الفوتوغرافية المنفعلة ، الى مستوى المثال المبدع ، والرؤيا الحلمية . السوريالية والغرائبية الاجواء والاطر (قصيدة ركاميات الصديق توما) . وعندها يستحيل الواقع الحطامي المتهدم ، عالما متكامل الملامح ، ينبثق ويتوالد من رحم اللغة والصورة والايقاع . وتصبح القصيدة خشبة تتحرك عليها الكائنات ، والمدن ، والمصانع ، والاشياء المتهدمة والمدمرة (قصيدة أربعون الدمار) . وهكذا ، تتكدس مساحات العذابات الدرامية أمام عدسة الذهن الشعري ، وتتراكم لقطات لقطات ، ومشاهد مشاهد . فتتمطى شبكة الرؤيا وتتسع ، لتطال حدود المأساة الشاملة ، ابتداء : من أقصى فتحات جراح الوطن شمالا ، وانتهاء : بأقصى نوافير النزيف الساري جنوبا (قصيدتا : « مقاطع من الحطام ث » و « أغاني زهران ») . كل هذا ، يبدو بمثابة استعراض بانورامي داخلي مكثف ، تناولنا فيه مناخات التجربة وخارطة المعاناة .

والآن ماذا عن سمات وخصائص مجموعة « ركاميات » فنيا ؟

ان « الياس لحود » ـ « ركاميات » ، يكاد يكون امتدادا كوميديا لمجموعة « فكاهيات » ، فالفكاهة الكاريكاتورية ، الموظفة فنيا وفكريا ، توشك أن تلازمه ملازمة تراثية ، لانها صارت واحدة من أهم خصائص ومميزات تراثه الشخصي ، اذ هي التي منحته دون غيره من رعيله الجنوبي ، ميزة التفرد في الحضور الشعري . وهي التي أكسبته استقلالية في الصوت والشخصية . وفي « ركاميات » يتجاوز « الياس » مرحلتيه السابقتين ، تجاوزا اتسم : بتعميق الفنائية ، بالتخلي عن بقايا المنبرية ، بالتشكيل والتقطيع الهندسي ، وبتكثيف ادائي في اللغة . وقد حملت تجربة «ركاميات» بصمات مسرحية ، رفعتها الى مرتبة الدراما الشعرية المسرحة ، وهنا نخصّ بالذكر قصيدة « أغني لزهران والبجعات الحزانى » التي تضمنت خلاصة العمل الدرامي المشعرنة والتي تنتظر من ينفذها في عملية تجسيد مسرحي حي .

ونقول أخيرا وليس آخرا : ان « الياس لحود » صوت يبشر بضياء نجم بعيد في سماء الشعر العربي المعاصر .

بيروت

* دار القلم ـ بيروت ١٩٧٨ .